بطل الحرب والحياة

مركز النيل للدراسات الاستراتيجية

23 شارع عبد الخالق ثروت ـ وسط البلد ـ القاهرة

تليفون وفاكس: 23924219 ـ 23924217

Email: <nile.center@hotmail.com>

http://nilecss.com

بطل الحرب والحياة

د/إياد حرفوش

بطاقة الفهرسة

أحمد، إياد.

بطل الحرب والحياة

إعداد: إياد أحمد هنداوي.

القاهرة ـ مركز النيل للدراسات الإستراتيجية، 2014.

ص ، 10.5× 21 سم.

تدمك: 3 ـ 11 ـ 5290 ـ 977.

رقم الإيداع: 2014/8918.

التاريخ: 2014/4/27.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2014

إهداء

إلى أبنائي «سيف الدين» و«سلمى»، وإلى كل «سيف» وكل «سلمى» بطول وطننا العربي وعرضه، أهديكم هذه السلسلة من بطولات «أغلى الرجال» فليس في تاريخنا الضارب في عُمق الزمن، ما هو أغلى من هؤلاء الذين ينسفون ـ حتى بذكراهم ـ تخرصات الذين افتروا على شعبنا العربي أنه خانع، وأن أمتنا المجيدة أمة الهزائم والنكسات.

لهؤلاء الذين ما هم منَّا، وما نحن منهم، للمهزومين في عقر رجولتهم، والمنسحقين في صُلب كرامتهم، نقول: ربما لا يكون شعبنا أعظم شعوب الأرض، لكنه قدَّم كل ما وَسِعه من تضحيات جِسام، نابَ عن شعبنا في تقديمها أغلى رجالنا، ممن قدموا أعمارهم قرابينًا لمستقبل جيلنا، وأجيال صاعدة آتية، بعدما نسج «أغلى الرجال»، بخيوط الدم والألم، طريقنا الصعب الذي تُظلله رايات النصر المنشود.

إليكم، يا أغلى الناس، صفحات من سِفر بطولات أغلى الرجال، فخطاهم هي ـ وهي وحدها ـ المعالم الحقيقية على طريق المجد.

المؤلف

هذه السلسلة

منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، جرت أكبر حملة تشويه للوعي القومي عرفها شعب في تاريخ الإنسانية، حملةٌ كان هدفها أن تهزم شعبًا من داخله، بعد أن حار أعداؤه في كسره من خارجه، وفشلوا. جرت تلك الحملة هنا، على أرض مصر، حيث اتفقت مصلحة النظام وقتها، مع هوى أكبر فصائل المعارضة، فاجتهدوا جميعًا لتشويه تاريخ هذا الشعب الحديث والمعاصر.

أما النظام، فكان قد تبنى سياسة الانبطاح أمام الإرادة الأمريكية، ومن ثم الواقع الجديد لإسرائيل بوصفها دولة المحور في الشرق الأوسط. وصار من مصلحته بطبيعة الأمور أن ينسى الناس أيام مجد لم يتقادم بها العهد بعد. صار من مصلحته أن يتحول انتصار الشعب في 1956م إلى هزيمة، وأن يتحول انتصاره المجيد في 1973م إلى محاولة بطولية انتهت بمجرد تدخل أمريكا! وأن تتحول هزيمة 1967م من هزيمة جولة إلى عقدة أبدية، وأن تتحول حرب 1948م ببطولاتها إلى «علقة» للجيوش العربية!

كما صار من مصلحته أن ينسى هذا الشعب كيف قام بالثورة تلو الثورة في تاريخه الحديث، من ثورة 1805م، للثورة العربية بقياد «أحمد عرابي باشا» في 1881م، لثورة 1919م

بقيادة «سعد زغلول باشا» ورفاقه، وثورة يوليو 1952م. أربعة ثورات جرى تهميشها أو تشويهها، فصارت «هوجة عرابي»، و«انقلاب يوليو»، وصار الحديث عن خنوع المصريين وصناعتهم للفراعين حديثًا مقدسًا على موائد المثقفين قبل البسطاء. وتحول السؤال المنطقي وهو «متى يثور المصريون؟» إلى سؤال مرير هو «لماذا لا يثور المصريون؟»، كأن عدم ثورتهم على الظلم صار واقعًا نسعى لفهمه، وليس مرحلة نسعى لتغييرها!

هكذا اقتضت مصلحة النظام، أما أكبر فصائل المعارضة - أو التي يفترض أنها كانت معارضة - ممثلة في تيار اليمين الديني، من جماعة الإخوان ومن لفَّ لفَّها، فقد وافق هذا النهج من النظام هواهم. ولم يكن إسهام أقلامهم ومنابرهم في تشويه تاريخنا بأقل من إسهام النظام. فمن مصلحتهم أن يرى الناس تاريخهم كله من محنة إلى محنة، وأيامهم كلها من هزيمة إلى هزيمة، ومن انكسار إلى انكسار. ليصبح تيار «دولة الخلافة» عندهم هو المهدي المنتظر، الذي يستدعي لهم من التاريخ البعيد مجدًا، نفاه بنفسه عن التاريخ الحديث والمعاصر!

حتى جاءت ثورة 25 يناير، وبعدها ثورة 30 يونيو، وسقط نظام مبارك وبعده الإخوان، ليبدأ الشعب رحلة البحث عن ذاته، وتاريخ رجاله وأبطاله من جديد. فالتجربة قد فندت له ما درسه في المناهج الدراسية، وما قرأه من رفوف المكتبات على السواء.

وسلسلة «أغلى الرجال»، سنطالع فيها معًا قصصًا لرجال عاشوا بيننا في الماضي، فصنعوا حياتنا في الحاضر، أو بمعنى أدق، صنعوا أفضل وأنبل وأنظف ما فيها. ولو كانت تلك القصص في شقها الدرامي من خيال مؤلفها، فهي في شقها السياسي والعسكري والمعلوماتي تلتزم التاريخ، ولا تستلهمه فحسب. نكتب تاريخهم وبطولاتهم الواقعية التي فاقت الخيال، من أجلنا نكتبه وليس من أجلهم، ومن أجل مستقبلنا نقرأ فيهم ماضينا، فتلك القصص لن تعرفنا بهؤلاء الرجال وحسب، لكنها ستعيد تعريفنا من خلالهم بتاريخنا الحقيقي الذي تعمد الجميع وتعاون الجميع لتشويهه. والله من وراء القصد وبالله التوفيق.

القاهرة في خريف 2013م

المؤلف

(1)

تحت القبة الخضراء

الزمان: صيف 1979م

المكان: جامعة السوربون، باريس

اليوم ده يا طه يومك

خوض المخاضة بحصانك

عدي وفوت من همومك

وخد لنفسك مكانك

☆☆☆

اليوم ده يا طه يومك

ولا شيئ سواك راح يفيدك

يا تعيش في عتمة ومتاهة

يا تقطف الشمس بإيدك

كان الشعر دائمًا رفيق حياته، يقرأه ويتذوقه حتى النشوة، ويكتبه بكل كيانه. ولم تكن الموسيقى أقل أهمية وتأثيرًا فيه. لهذا كله، عندما سمع تلك الأغنية للمرة الأولى مع عرض مسلسل الأيام في الثمانينيات، سرت قشعريرة نشوة في جسده، فقد مست كلمات «سيد حجاب» وأنغام «عمار

الشريعي» شغاف قلبه بعمق! واستدعت لذاكرته فورًا شعوره في ذاك اليوم من عام 1979م.

في ذلك اليوم، هناك، تحت القبة الخضراء الداكنة لأعرق جامعات العالم في مجال العلوم الإنسانية، كان يخطو خارجًا من القاعة كلاسيكية الطراز وهو يتأبط ذراعها، خطواته السريعة الواثقة بدت في هذه اللحظة وكأنها لا تمس الأرض، وكانت زوجته تشد على يده التي تعانق كفها وهي تهرول خلفه لتلاحق خطواته الطائرة.

كان طالب الدكتوراه المصري «عبد الفتاح تركي» قد انتهى لتوه من مناقشة رسالته في علم الاجتماع التربوي، وحصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف من السوربون. ولن ينسى مهما طال به العمر تلك اللحظة عند نطق رئيس اللجنة بالنتيجة النهائية، النتيجة التي توجت أحد عشرة عامًا من النضال، ففي هذه اللحظة تحديدًا أشرقت في عينيه ومضة نور خاطفة، هل رآها بعين الحقيقة أم بعين الخيال؟

في الردهة الخارجية توقف للحظة ليواجه زوجته الحبيبة، وهو يرفع كفيها إلى شفتيه، ويطبع فوقهما قبلة طويلة، ويبللهما بدموعه، كان الامتنان قليلًا، والعرفان لا يصف شعوره في تلك اللحظة، عندما تشعر بحاجة لأن تتحول بأكملك لكلمة تشكر بها من تحب، فلا تسعفك الكلمات. أما هي، فلم تكن تنتظر شكرًا ولا عرفانًا، كانت تحبه كأعظم ما يمكن لزوجة أن تحب زوجها،

تحبه لدرجة أن تفنى فيه، فيصير هو الحياة، يصير هو ذاتها التي تتحقق، فتعطي بغير حدود؛ لأننا لا نسأل ذاتنا عما أعطيناها، ولا نتوقع منها شكرًا ولا عرفانًا!

عندما استقلا التاكسي في طريق عودتهما لشقتهما البسيطة القريبة من الجامعة، كانا متجاورين على المقعد الخلفي، وكان كل منهما يحلق بخياله ليستعرض مشوار العمر.

العمر يبدأ عندها من اليوم الذي عرفت فيه أنه تقدم لخطبتها، كم كانت سعادتها غامرة حين عرفت أن قريبها الشاب الجميل الممشوق القوام قد تقدم لخطبتها! كان دائمًا كبيرًا في عينيها، وزادت مكانته بعد بطولته وتضحيته التي قدمها على أرض سيناء، لهذا شعرت وكأنها تملك الدنيا يوم عرفت أنه اختارها لهذا الشرف من بين نساء العالمين. تذكرت الدكتورة «سهير» أيام الخطبة، ويوم الزواج، ورحلة الحمل وإنجاب طفلتهما الأولى، وبعدها ابنهما، تذكرت ليالي المطالعة الطويلة التي كانت تساعده فيها في الماجستير ثم الدكتوراه، تذكرت تدبيرها لراتب البعثة حتى يكفي احتياجات الأسرة الصغيرة في العاصمة الفرنسية الكبيرة. كل العواصم الأوروبية رائعة الجمال ما دام جيبك عامرًا، ولا تكتشف كم هي باردة وقاسية إلا لو صار فارغًا، هذا هو الموقف الذي حرصت دومًا أن تجنب أسرتها الوصول إليه، ونجحت في هذا نجاح كل محب مخلص.

أما هو، فكانت رحلته مع الذكريات أطول بكثير. رحلة طويلة شاقة وشائقة، حملته من قريته «فيشا سليم»، إلى مدينة طنطا عاصمة الإقليم، إلى القاهرة، إلى عمق سيناء، وأخيرًا إلى هنا في باريس. ومع ذلك كله فقد احتفظ بكل تلك المراحل تحت جلده، لم يخلع جلباب الفلاح حين حصل على بكالوريوس التربية، ولا ترك هوية التربوي حين ذهب يؤدي واجب الجندية ويسدد ضريبة الدم كضابط احتياط في زمن الحرب، ولا خلع ثوب الشرف «الميري» حين ارتدى الثوب الأكاديمي في السوربون، ولا حين وضع ثوب الأستاذ الجامعي في جامعة طنطا! كل مرحلة أضافت له ثوبًا ولم تخلع عنه ثوبه السابق! لهذا بقي «عبد الفتاح تركي» الفلاح والتربوي والضابط في حالة جوار دائم تحت جلده، وبقوا جميعًا بذات الحضور والتأثير في كل مواقف حياته.

في ذلك اليوم كان لا بد أن يستعيد بذهنه رحلته التي حملته إلى هنا، من فيشا سليم إلى باريس عبر صحراء سيناء!

(2)

تحت القتام

الزمان: الساعة الحادية عشرة من مساء الأربعاء 7 يونيو 1967م

المكان: مقر التمركز المؤقت للفرقة الرابعة المدرعة، شرق قناة السويس

كانت مشاعر مرتبكة تسود القوات التي تبقت من الفرقة الرابعة، بعد ثالث أيام القصف الجوي المكثف من قبل العدو، نحن الآن في قلب سيناء، في لهيب يونيو فوق رمال الصحراء القاسية، لكن الجنود قطعًا لم يشعروا بحرارة الجو الخانقة، فتلك رفاهية لم تكن متاحة لمن يواجهون العدو، فلا يمكن أن تشعر بقيظ الصيف عندما تكون وسط آتون نيران يأتيك من كل جانب بالفعل. ونحن الآن تحت القتام في ظل سماء مكشوفة، بعد تدمير الطيران المصري بالكامل في مرابضه، وفي أول أيام الحرب! وهو الخطأ الإستراتيجي القاتل الذي حوكم وسجن بسببه الفريق «صدقي محمود» بعد الحرب[1].

(1) ينسى فصيل عرابي الهزيمة الذي تعود النواح على هزيمة يونيو كأنها نهاية التاريخ، أن الجيش المصري وقائده الأعلى الزعيم جمال عبد الناصر قد حاكموا من تسبب في النكسة بسوء التقدير والتصرف في المعركة، وكانت محاكمات قادة الطيران والحكم عليهم بالسجن وتنفيذ تلك الأحكام من أهم وقائع محاسبة المقصرين بعد المعركة.

لهذا، وبهدف الحد من الخسائر البشرية، صدرت الأوامر للقوات بالتدرع بما يسمى في العسكرية «الدفاع الجوي الطبيعي»، وهو ما يعني استخدام جغرافية المكان، من صخور وجبال وممرات، للاحتماء من ضربات العدو الجوية التي تبدأ مع الفجر، ولا تنتهي إلا مع آخر ضوء! وكانت الأنباء العبثية تتوالى مع بعض الجنود الذين وصلوا لشرق القناة أثناء انسحاب فرقهم من عمق سيناء، بعد قرار الانسحاب العشوائي - وغير المبرر - الذي اتخذه المشير «عامر» بعد ساعات من بداية الحرب. فقد كانت العديد من فرق الجيش مشتبكة مع العدو وفي موضع دفاعي قوي رغم تدمير الطيران، وكان الانسحاب التدريجي المخطط جيدًا كفيلًا بتغيير واقع المعركة، وكفيلًا بألا يشعر المقاتل المصري بشعور الغبن القاتل لأنه لم يُمَكَّن من قتال عدوه الغادر!

في خيمته المنصوبة في حماية تلك التبة الصخرية التي تقيها نسبيًا من الخطر، جلس النقيب «عبد الفتاح تركي» يقظًا وملتهب المشاعر. ضابط الاحتياط الشاب ثلاثيني العمر، وسيم القسمات، لم يتغلب التعب والخطر على بريق عينيه الجميلتين، كانت روحه الشابة الوثابة تظهر في تلك العينين رغم الموقف الصعب، وكان معه زميله النقيب «حسام الخشاب»، ومعهما اثنان من رفاق السلاح، مستلقين بعد إرهاق يوم شاق، لم يتوقف فيه قصف العدو واصطياده للمدرعات والأفراد لحظة واحدة. لم تكن جغرافية هذه المساحة المكشوفة تسمح لهم بما يكفي حتى من الدفاع الجوي الطبيعي. لهذا فقدَ اللواءُ

المدرع الثاني الذي يخدمون ضمن قواته أكثر من نصف مدرعاته، فبقيت فيه 60 دبابة من إجمالي 110 دبابة، كما دُمرِت كل القوات المساعدة للِّواء، واستشهد وجرح عدد كبير من الأفراد. في ظل تلك الظروف لنا أن نتخيل مشاعر الجنود والضباط، لم يكن من تعبير عن «عبد الفتاح» ورفاقه أفضل من بيت «إيليا أبو ماضي»:

بل أنت أعظم حيرة من فارس تحت القتام

لا يستطيع الانتصار، ولا يطيق الانكسار

ولأنه لا يطيق الانكسار، قطع النقيب «عبد الفتاح» الصمت بقوله:

- وبعدين؟ هنفضل كده؟ تلات أيام قصف جوي من غير ما نشتبك مع العدو؟ ولا حتى نشوفه غير في السما؟

- وإيه اللي يخلي العدو ينزل على الأرض؟ إيه اللي يخليه يتقدم بمدرعاته ما دامت السما مفتوحة، ويقدر يصفي قواتنا بالطيران على مهله؟ شكلنا مش باين له اشتباك.

هكذا أجابه النقيب «حسام»، فشعر «عبد الفتاح» في لهجته بنبرة مرارة، وهي نبرة مبررة ومحققة تمامًا في هكذا ظروف، لكنه يعرف يقينًا أنها مرارة عارضة؛ فحسام مثله تمامًا، ابن ثورة يوليو الذي لن يكفر بها مهما بلغت مرارة الموقف.

يتذكر «عبد الفتاح» طفولته في قريته «فيشا سليم»، ويذكر جيدًا شعور الفلاح المصري بهذه الثورة، يتذكر جلاء الإنجليز عن مصر وهو في الصف الثالث الثانوي بمدرسة طنطا الثانوية بنين، يتذكر تدريبات التربية العسكرية وهو في الجامعة أثناء العدوان الثلاثي على مصر وحماسه لها. نعم، لا شك بالرغم من كل ذلك، أن هذا الموقف العبثي يبث في نفوسهم ـ وهم أبناء يوليو المخلصين ـ مرارةً لا يمكن تجاهلها، لكن النفوس الكبيرة لا تنسى أمجاد الماضي وآماله في لحظة انكسار!

قال «عبد الفتاح» لصديقه ورفيق سلاحه:

- المعركة مخلصتش يا «حسام»، وحتى لو خلصت .. ولو كنا اتهزمنا بالفعل، هنقوم وهنحارب وهننتصر.

كان أحد الضباط في الخيمة يطفئ سيجارته في الرمال برفق، بعد أن سحب منها نفسين فقط، ليوفرها لمرة تالية. فعلق قائلًا، ونبرته تحمل من الشك ما تحمل، رغم ما احتوت عليه من خبر سار:

- الفريق «صدقي الغول» قال إن فيه طيارات روسية جديدة اتسلمت لمصر من خلال الجسر الجوي، وهتتحط عليها العلامات وتطلع بكرة.

تحمس النقيب «عبد الفتاح» وقال:

– لو اتوفر غطا جوي يبقى هنقدر نشتبك مع العدو، ويبقى فيه فرصة ..

قاطعة دخول جندي المراسلة، وهو يطلب حضور الجميع في خيمة قائد اللواء الثاني مدرع من الفرقة الرابعة، اللواء «كمال حسن علي»[2]. فهل حان وقت المواجهة وحمل السلاح بعد ثلاثة أيام من الانتظار البغيض؟ تحرك الجميع فورًا ـ بكل ما فيهم من حماس يغلب التعب واليأس ـ نحو خيمة القائد.

دخل الأربعة ليجدوا بقية ضباط اللواء يقفون حول خريطة وضعت فوق صفين من أجولة الرمل المتراصة. وبينهم وقف اللواء «كمال»، والذي دعا الضباط القادمين لينضموا للجميع حول الخريطة. ثم نظر في عيونهم جميعًا وهو يقول:

– صدرت أوامر من القائد الأعلى مباشرة ـ من الريس جمال عبدالناصر ـ بالتقدم والاشتباك مع العدو قبل أول ضوء غدًا.

تبادل «حسام» و«عبد الفتاح» نظرة ذات معنى، وراودت الابتسامة وجهيهما، معنى هذا أن الرئيس دخل بنفسه لغرفة القيادة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه! ثم عادا بسرعة للتركيز بأعينهما مع عصا القائد التي بدأت تتحرك فوق الخريطة، وهو يقول:

(2) الفريق كمال حسن علي، رئيس الوزراء فيما بعد.

- فيه فرقة مدرعة من قوات العدو اتحركت غربًا باتجاه ممر متلا، هدف العدو هو الوصول للقناة، ومنها للطور. طبعًا الوصول للطور معناه القضاء على القوات المنسحبة اللي بتتجمع هناك علشان تنسحب لغرب القناة. مهمتنا هي وقف مدرعات العدو عند ممر متلا، أو على الأقل تعطيلها، وبأي تمن، علشان نكسب وقت لحد ما قواتنا تنسحب لغرب القناة، وبعدها يتم تدمير معبر الطور، بعد اكتمال الانسحاب.

- هيكون معانا غطاء جوي يا افندم؟

هكذا سأله «حسام»، فظهر على وجه اللواء تقلص بسيط، كانت نقطة القصور في سلاح الطيران تؤلم كل القواد والضباط الذين صمدوا في معركة يونيو، فحرمان أي جيش معاصر من غطاء الطيران، وفي ظل غياب معدات دفاع جوي تكفي لسد هذا القصور، هو أكبر محنة قد يتعرض لها الجيش المقاتل. لكن الأمل ما زال قائمًا في وصول بعض الطائرات الدفاعية عبر الجسر الجوي السوفيتي؛ لهذا أجاب:

- المفروض هيكون فيه طيارات روسية جديدة سوخوي 7، وميج 21، لكن ده لسه مش مضمون تمامًا.

كان صريحًا في وصف الوضع، وفي عدم تأكده من وصول الطائرات وقيامها بتغطية القوات. سكت اللواء «كمال» للحظة قبل أن يستأنف قائلًا:

- المهمة طبعًا مش سهلة، إنتو عارفين الظروف الحالية، واللواء فقد نصف طاقة نيرانه، ده غير تدمير القوات المساعدة وبطاريات الدفاع الجوي، وحتى سرية المساعدة الطبية. لازم أكون واضح معاكو يا رجالة، متوقع خسائر كبيرة أثناء مواجهتنا لفرقة كاملة من مدرعات العدو، لكن انتو قدها يا وحوش. احنا بنحارب بقلوبنا وبتوفيق ربنا قبل النيران.

- تمام يا افندم.

ترددت عبارة التمام تلك ردًا على جملته الحماسية، كان الحماس في صدور الضباط الشباب يتفوق على الشعور بالخطر، خاصة بعد 72 ساعة من القصف الجوي المستمر دون اشتباك. استأنف اللواء الخطة وهو يقول:

- قواتنا هتتقدم، وتقف عند منطقة الصحن التالت قبل ممر متلا، وبعدين سَرِيَّة الاستطلاع هتتقدم لوحدها لاستطلاع قوات العدو وهي خارجة من الممر، نظرًا لطبيعة الممر الجغرافية الملتوية لازم استطلاع بشري مباشر، ونظرًا لأن معدات الاتصال بقى صعب الاعتماد عليها، هيكون مطلوب من السرية التقدم للاستطلاع بنضارات الميدان، ثم العودة للإفادة عن تقدم العدو وعدد القطع المشاركة في التقدم. سرية الاستطلاع هتكون بقيادة النقيب «عبد الفتاح تركي» ومعاه النقيب

«حسام الخشاب» ومعاهم الأفراد وأربع عربيات.

أي أسئلة؟

بعد استفسارات بسيطة طلب منهم اللواء الانصراف، والاستعداد للتحرك قبل أول ضوء. وبدأ الجميع يحصون الساعات الباقية على أول اشتباك بين القوات المصرية وقوات العدو الصهيوني في حرب 1967م. الاشتباك الذي سيكتب على جميع الناجين من المعركة أن يسمعوا ويقرأوا إنكاره ونفيه بعيونهم فيما بعد، وعلى لسان بني وطنهم، رغم اعتراف العدو نفسه به[3]، عندما صار الكل يتحدث وكأن جيش مصر قد فر مذعورًا أمام العدو، وبدا وكأن الجميع قد نسوا بطولات الألوية والكتائب التي اشتبكت لآخر طلقة! ولم ينسحب من انسحب دون قتال إلا نتيجة للأوامر الخطأ من قائد الجيش!

(3) يوميات الحرب التي سجلها العدو ونشرت بعد ذلك بسنوات أشارت لبسالة بعض ألوية الجيش في التصدي لزحف العدو رغم قلة الإمكانات وانهيار خطوط التموين والإمداد وغياب الغطاء الجوي.

النقيب احتياط عبد الفتاح تركي

(3)

لو جاء الغد

الزمان: الساعة الثالثة من صباح الخميس 8 يونيو 1967م

المكان: مقر التمركز المؤقت للفرقة الرابعة المدرعة، شرق قناة السويس

كان يعرف حجم المخاطر في هذه المهمة المرتقبة، يعرف صعوبة المواجهة المقبلة بين نصف لواء مدرع مصري بدون قوات مساعدة في جانب، وفرقة مدرعة كاملة من قوات العدو الصهيوني في الجانب المقابل، ويعرف معنى تحرك سرية الاستطلاع التي يقودها دون حماية من بطاريات الصواريخ أرض ـ جو خلفها، ودون سرية المدافع 130 مل الثنائية، والتي تغطي انسحاب السرية بعد الاستطلاع في حالة الهجوم عليها، يعرف معنى تعرضه أو أي من رفاقه للإصابة في غياب السرية الطبية التي تقدم الإسعاف الأولي لحين الوصول لأول مستشفى عسكري. كان يعرف كل هذا، والأهم أنه كان يعرف أنه يقاتل في حرب خسرها الجيش المصري بالفعل منذ اليوم الأول، حرب لن يستقبله الشعب لو عاد منها بأكاليل الغار! بل ربما لن يعرف أحد ببطولة من قاتل ومن ضحى!

كان يعرف كل هذا، ولكنه يعرف كذلك حيوية تلك المهمة للمعركة القادمة؛ لمعركة استعادة الأرض

والكرامة، فجوهر المهمة هو حماية القوات التي تنسحب الآن نحو الطور، لتعبر القناة للشاطئ الغربي، وحمايتها تقتضي تعطيل مدرعات العدو عن الوصول لتلك النقطة لإبادتها. فلو أُبيدت تلك القوات لكانت إعادة البناء أصعب، ولتضاعفت خسائر الجيش في الأرواح، وهي العنصر الأهم في أي معركة. السلاح سيمكن لمصر تعويضه بأي صورة وبأي ثمن، لكن كل شهيد وكل معاق تخرج به مصر من المعركة هو الخسارة الأصعب تعويضًا!

كان واثقًا مع بداية اليوم الرابع للقتال أن الجيش المصري قد هُزِمَ هزيمة مريرة، وأَمَرُّ ما فيها أنه لم يُمَكَّن من القتال بسبب ارتعاش بعض قادة المكاتب المكيفة، هناك في القاهرة. لكنه كان واثقًا كذلك من قدرة مصر على إعادة بناء الجيش، والوقوف على قدميها من جديد. ومهمته هذه - والتي ستكون أول اشتباك حقيقي مع العدو لحماية القوات خلفه - هي أولى الخطوات نحو إعادة البناء المأمول.

هل تسلل الخوف إلى قلب النقيب «عبد الفتاح تركي» في تلك الليلة؟

ربما، فالبطولة ليست ألا تخاف، فالخوف والتعلق بالحياة شعور بشري طبيعي، خاصة لشاب طلق محب للحياة، لم يكمل الثلاثين من عمره بعد، ليست البطولة ألا تخاف، لكن البطولة أن تغلب خوفك ولا يغلبك، أن

تضحي بنفسك وحياتك العزيزة من أجل هدف أكبر من الحياة نفسها!

ظلت تلك الأفكار تراود عقله وتمنعه من النوم، وكانت ساعة قد بقيت تفصله عن وقت التحرك المرتقب، عندما التفت نحو فراش النقيب «حسام الخشاب»، فوجده بدوره ما زال مستيقظًا، سأله:

- فاضل ساعة ونبتدي نستعد، مش هتنام يا حسام؟

- يا سيدي .. بكرة نشبع نوم، وبعدين هو إنت يعني اللي نمت؟

انقبض قلبه لسماع تلك العبارة. لم يتبين تفاصيل وجه حسام في الظلام لكنه تبين في صوته شجن غريب! وهو يقول «بكرة نشبع نوم»! أتاه صوت «حسام» عبر الظلام وهو يسأله:

- تفتكر اللي حصل ده كله ليه يا «عبد الفتاح»؟ الضربة مكانتش مفاجأة، والعلاقة مع إسرائيل متوترة من أبريل لما أسقط العدو ست طيارات سورية. والريس طلب سحب قوات الطوارئ الدولية من الحدود وقفل مضايق تيران، وبعدها إسرائيل عملت حكومة حرب يوم واحد يونيه، يعني نية الحرب بقت مؤكدة. يبقى ليه سابونا نتاخد غدر كده من غير ما نحارب؟

- عاوز كلام رغي في التفاصيل ولا السبب الحقيقي؟

- السبب الحقيقي طبعًا!

زفر «عبد الفتاح» زفرة طويلة ساخنة وهو يقول:

- فاكر يا «حسام» لما الريس قال يوم المنشية «إذا مات عبد الناصر فكلكم عبد الناصر»؟

- فاكر طبعًا.

- هنا المشكلة. لا كلنا بقينا جمال عبد الناصر ولا حتى الرجالة اللي حوالين عبد الناصر بقوا كلهم زيه، صحيح فيه مخلصين وقادرين زي «صدقي سليمان»[4]، و«عزيز صدقي»[5]، لكن برضو فيه رجال مكانوش على مستوى المسئولية زي «صدقي محمود»[6]. رغم إن التلاتة صدقي.

ابتسم «عبد الفتاح» و«حسام» لمفارقة الاسم، ثم استمر «عبد الفتاح» قائلًا:

- أنا راجل تربوي، المجتمع محتاج إعادة تأسيس بمبادئ ومفاهيم جديدة، علشان يقدر يفرز قيادات تغير المستقبل، وتضمن إن الإنجازات متضيعش.

كان «عبد الفتاح تركي» التربوي قد خرج من تحت إهاب ضابط الاحتياط، وكان الآن يتحدث بحديث سوف يشكل مهمة حياته فيما بعد. واستأنف يقول:

(4) رئيس وزراء مصر عام ١٩٦٦م، ووزير السد العالي قبلها.

(5) أول وزير صناعة مصري منذ ١٩٥٥م ومؤسس التصنيع الثقيل في مصر، ورئيس الوزراء فيما بعد.

(6) قائد القوات الجوية خلال حرب النكسة.

- عبد الناصر نفسه حذر من الاعتماد على الفرد وقال إن كل فرد يؤدي واجبه ويمضي[7]، مينفعش يكون اعتمادنا الأساسي على بطولة فردية مهما طال عمرها برضو قصير. لازم المجتمع كله يتحول إلى مصنع قيادات وطنية قادرة.

ثم قال وهو يستوي جالسًا فوق الفراش الخشن:

- المهم خلينا في النهارده، بكرة دايمًا بيبتدي من النهارده يا «حسام»

- بس ييجي بكرة بقى ونواجه ولاد الكلب دول في الميدان. خلاص هانت.

«بس ييجي بكرة» .. لو جاء الغد! لهذه الدرجة صارت مجرد المواجهة أُمْنِية لهؤلاء الشباب على رمال سيناء!

مرت الساعة سريعًا، وقاما يستعدان ليوم طويل. تابع كل منهما استعداد جنوده في شدة الميدان الكاملة، وفي تمام الخامسة بدأت سرية الاستطلاع في التحرك نحو ممر متلا في أربعة سيارات، يستقل الأولى «عبد الفتاح تركي» والثانية «حسام الخشاب»، وبقية جنودهما في سيارتين. وعندما تجاوزت الساعة السابعة صباحًا بعشرين دقيقة كانت سَرية الاستطلاع تتقدم نحو منطقة الصحن بممر متلا، بينما توقف رتل الدبابات على مسافة كيلومتر واحد خلفها، في انتظار ما تعود به السرية من معلومات عن تحركات العدو.

(7) من خطابات الرئيس جمال عبد الناصر: لقد رفعت صوتي أكثر من مرة محذرًا من الاعتماد على الفرد؛ لأن كل فرد له دور يؤديه ويمضي. ويبقى الشعب وحده من الأزل الى الأبد.

(4)

الشهيد الحي

الزمان: يوم 16 أكتوبر 2009م

المكان: الطريق إلى ممر متلا

تحركت السيارة منذ الصباح الباكر. كان الدكتور «عبد الفتاح تركي» يقوم برحلة ألح عليه في القيام بها نجله «خالد» لعدة سنوات، حيث تحركت بهما السيارة مع مجموعة من أصدقاء «خالد» ومعهم معدات بسيطة للتسجيل والتصوير، متجهين من القاهرة نحو سيناء، نحو بقعة شديدة الخصوصية فيها تحديدًا، تلك البقعة التي لم يزرها الدكتور «عبد الفتاح» منذ اثنين وأربعين عامًا كاملة .. فهي البقعة التي رأى فيها النور لآخر مرة، أو وفق تعبيره هو نفسه:

«التي استشهد فيها النور في عينيه»

اليوم، أصبح الدكتور «عبد الفتاح تركي» سبعيني العمر أستاذًا متفرغًا، بعدما قضى عمره يناضل من أجل التغيير الجذري الذي حلم به دومًا، تغيير المجتمع من جذوره التربوية، حيث تخرج على يديه آلاف الطلاب، ورأت النور عشرات الرسائل العلمية التي تأثرت في مجملها بمنهجه النقدي، ذلك المنهج المبتكر الذي جعل شيوخ التربويين في مصر يسمونه «طه حسين التربوي». فلو كان قد ضحى بنور عينيه، بدماء مقلتيه التي سالت على أرض الوطن، فصار

بطلًا، فهو كذلك قد ضحى بعمره، وسخر نور عقله كله، في إعداد التربويين الذين يعدون لمصر أجيالًا من الأبطال، ليصبح بذلك .. **بطلًا في الحرب .. وبطلًا في الحياة.**

كان ولده وأصدقاؤه يريدون تسجيل اللحظات المجيدة التي عاشها على أرض سيناء، للتاريخ ولأجيال سوف تُوْلَد غدًا، وتتعلم من التجارب، وتضيء لها التضحيات الطريق، لكنه رفض طويلًا. كان يرى أن تضحيات المعارك أكبر من الأغاني والاحتفاليات وأعظم من اللقاءات المسجلة والمصورة، وأن البطولة الحقيقية تُبْتَذَل عندما يُصِرُّ صاحبها على ذكرها وإظهارها كل حين، لذلك تعامل معه كثيرون دون أن يعرفوا أن الأستاذ الجامعي بطل من أبطال حرب يونيو، وأن النظارة السوداء فوق عينيه لم تصحبه منذ طفولته، وإنما حلت ضيفًا ثقيلًا على وجهه بعد أن فقد بصره في المعركة، وكان يحرص على إبقائها فوق عينيه لتخفي إصابته دائمًا أمام الغرباء.

أما السبب الأهم لرفضه توثيق بطولته، فيرجع لطبيعته المقاتلة ذاتها، فهو لم يتعود أن يواجه العالم كمحارب قديم، وإنما تعود أن يواجهه كـ .. محارب دائمًا!

حتى في قمة اليأس والإحباط، في صيف 1968م، وبعد مرور أقل من عام على إصابته، وعندما وجد طريق المستقبل مسدودًا أمامه بحالته الجديدة. وقتها، كتب خطابًا للزعيم «جمال عبد الناصر»، لم يكتبه كصاحب

مظلمة يسأل ذا سلطان، ولا كمواطن يخاطب رئيسًا، لكنه كتبه كبطل يخاطب بطلًا، وكمقاتل يخاطب رفيق سلاح، فبدأه بقسمه الرائع:

«قسمًا: لن تموت كلمتي إلا شهيدة كما استشهد النور في عينيَّ».

وطلب في خطابه توفير بعثة دراسات عليا له في إحدى البعثات المصرية للخارج، وهو الحق الذي كان متاحًا لألوف الطلاب في الستينيات. لم يطلب هذه البعثة من الدولة كمقابل لما قدمه، فما قدمه لا يعدله مقابل، لكنه طلبها كمقاتل يطلب سلاحًا جديدًا ليقاتل به في معركة جديدة، بعد أن منعه جرحه ـ كما قال في أشعاره[8] ـ من الاستمرار في الصف بين الجنود، كان يطلب سلاح العلم ليقاتل به في معركة التربية والتنوير، واستجاب «عبد الناصر» لطلبه، فكانت رحلته الدراسية الطويلة لفرنسا.

عندما مرت السيارة بنفق الشهيد «أحمد حمدي» تذكر الدكتور «عبد الفتاح» هذا البطل والرمز، فأخذ يقص على ولده ورفاقه قصة الشهيد الجليل، بطل سلاح المهندسين الذي رفض الانسحاب في عام 1967م، قبل أن يدمر خطوط المياه الرئيسية في سيناء ليحرم العدو منها، ويفجر بنفسه كوبري الفردان حتى لا تستخدمه القوات المعادية. كذلك رفض الجلوس في مركز القيادة في

(8) انظر ملحق أشعار الدكتور عبد الفتاح تركي.

حرب أكتوبر، ونزل مع جنوده للشاطئ الشرقي من القناة خلال إنشاء كباري العبور، ليستشهد بشظية بين جنوده!

صمت الدكتور «عبد الفتاح»، وتغضن وجهه بعدما روى لهم حكاية الشهيد «أحمد حمدي»، فقد تذكر شهيدًا آخر. رفيق سلاحه الذي فاضت روحه في نفس البقعة واللحظة التي فاض فيها نور عينيه، إنه النقيب «حسام الخشاب»، فقد وافق الدكتور «عبد الفتاح» على هذه الرحلة بعد طول رفض لهدف واحد، هو زيارة قبره! حيث دفن الشهيد الذي كان يقول قبلها بليلة واحدة «بكرة نشبع نوم» في نفس البقعة التي استشهد فيها، بـ «أَفَرُول» العمليات والخوذة التي خضبتها الدماء الطاهرة.

أما المشهد التالي في رحلتهم نحو ممر متلا، فلسوف يبقى ماثلًا بعقول «خالد تركي» ورفاقه للأبد، فعندما أشرفت السيارة على نقطة الحراسة الواقعة على الطريق المرصوف بين ممر الجدي وممر متلا، استوقفها جندي شاب، يظهر من سمرته الرائقة ولهجته العذبة أنه من أبناء الريف، وقال:

- ممنوع يا أساتذة .. منطقة عسكرية.

فتح الدكتور «عبد الفتاح» نافذته ليطل على الشاب، ويقول:

- أنا داخل أزور النقطة اللي اتصبت فيها يا ابني.

تأمل العسكري الشاب وجه المحارب السبعيني للحظة واحدة، وتلك النظارة البنية الداكنة على عينيه، ففهم الجندي في تلك اللحظة القصيرة كل شيء، وإذا به ـ بفطرة المصري الذي ارتوى منذ طفولته بعقيدة احترام البطولة والفداء ـ يضم ساقيه في وقفة «انتباه»، ويرفع يده بالتحية العسكرية للبطل وهو يقول[9]:

- اتفضلوا يا افندم.

كان الدكتور «عبد الفتاح» يبتسم وهو يرفع يده شاكرًا الجندي، بينما سالت الدموع على وجنات ولده وأصدقائه. كانت دموعهم خليطًا بين التأثر والإعجاب والدهشة، أي لغة غريبة تجمع بين الشاب الريفي الذي يرتدي زي الشرف العسكري اليوم، وبين المقاتل الذي ارتداه وخضبه بدمه منذ أربعين عامًا؟ أي لغة غريبة في إيجازها واختصارها للمعاني، وفي قدرتها على بناء جسور الثقة في لحظة واحدة؟ لم يكن الجندي أبلهًا لأنه لم يطلب تفتيش السيارة أو يمنعها من الدخول، كانت العبارة ونظرته لوجه البطل القديم كافية جدًّا لبناء جسر متين من الثقة.

يتذكر «خالد» كل تفاصيل ذلك اليوم، فقد وصف لهم والده النقطة التي ينبغي أن يقفوا عندها، وصار يرشدهم خطوة بخطوة كأنه يرى كل شيء، وعند نقطة منبسطة تشرف على بدايات ممر متلا من بعيد طلب منهم

(9) واقعة حقيقية.

التوقف، وكان أخفهم حركة ـ كأن السنين لم تمر به ـ وهو يقفز من السيارة للأرض ويقول:

- هنا .. منطقة الصحن!

وبدأت الكاميرا وجهاز التسجيل يعملان ليسجلا شهادة كاملة للتاريخ .. شهادة لشهيد حي! سبقه نور عينيه للشهادة في معركة الموت، ليتركه بيننا يواصل معركة الحياة!

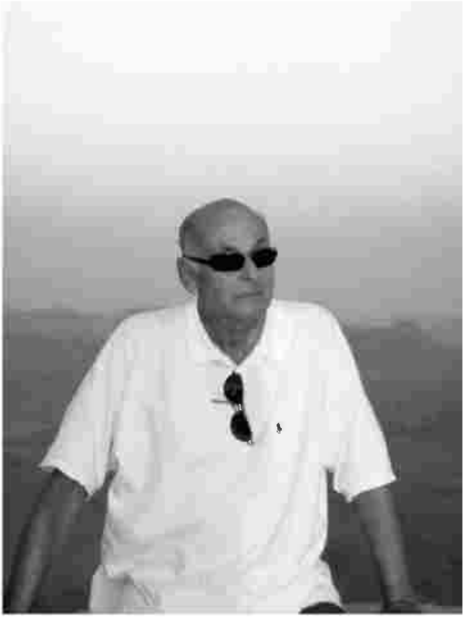

الدكتور «عبد الفتاح تركي» عند زيارته لمنطقة

الصحن بعد اثنين وأربعين عامًا من المعركة

(5)

معركة الصحن

الزمان: السابعة والنصف صباح يوم الخميس 8 يونيو 1967م

المكان: منطقة الصحن الثالث قرب ممر متلا

وصلت سيارات سَرية الاستطلاع الأربعة إلى مشارف الممر، ورابط خلفها اللواء المدرع في انتظار المعلومات، قام النقيب «عبد الفتاح» بإنزال الجنود من المركبات وطلب منهم التحصن بالصخور المحيطة بمنطقة الصحن، بينما بقي هو والنقيب «حسام» في السيارتين.

خلال لحظات كانت الدبابات الإسرائيلية قد بدأت في الظهور .. أخيرًا ظهر العدو أمام عيونهم على الأرض، بعدما ظل يصب عليهم النيران من السماء لثلاثة أيام كاملة منذ بداية المعركة، وخلال لحظات سوف تبدأ أول مواجهة حقيقية بينهم وبين رتل دباباته، في هذه الحرب الظالمة التي حرمتهم من لحظات المواجهة!

لم يستغرق الأمر سوى لحظات ليحصي النقيبين عدد مدرعات العدو، ثم تبادلا نظرة تفاهما فيها على العودة لإبلاغ قائد اللواء بعدد المدرعات المعادية، وفي اللحظة التي نظر فيها النقيب «عبد الفتاح» لساعته كانت عقاربها تشير للسابعة والنصف صباحًا، وعند هذه اللحظة .. عند

الساعة السابعة والنصف من صباح الخميس الثامن من يونيو 1967م .. توقف الزمن .. للأبد.

دوى الانفجار وارتج الكون من حوله، التفت سريعًا لليسار نحو سيارة «حسام» فلم يرها .. لكنه رآى بركان نار يفور من ناحيتها بوجهه كأنه قفز في قلب الشمس الملتهب، لفحت النار وجه النقيب «عبد الفتاح» وصدره، وشعر وكأن ألف جسم ملتهب يخترق وجهه وجسمه. ثم .. ثم أطبق السواد على الكون.

بالقطع لم يستوعب في تلك اللحظة ما حدث، فقد كانت الصدمة هائلة، لكنه على الأقل احتفظ بوعيه! وكان أول ما فكر فيه أن سيارته ستنفجر في أي لحظة بفعل قذيفة من العدو كما انفجرت سيارة «حسام» .. وهو ما حدث بالفعل .. فقد انفجرت بعد ثانيتين، ولكن بعد أن قفز منها نحو الأرض.

على الأرض زحف لعدة أمتار في ظلامه الخاص الذي حاصره، زحف وهو يسمع صوت انفجار سيارته، ويشعر بالدم الدافئ يسيل من وجهه وصدره ويديه، ويختلط بتراب الأرض، ليصنع عجينة الدم والتراب التي حولت سيناء لأرض مصر المقدسة! كانت الحجارة الصغيرة تلهب جراح صدره وتشعلها، لكنه استمر بالزحف حتى ارتطمت رأسه بصخرة كبيرة، وشعر بدوار عنيف أرغمه على التوقف عن الزحف. وبدأ صوت الاشتباك يصل لأذنيه، لقد وصلت الرسالة للواء المدرع المصري

عندما انفجرت سيارتيهما ، فتقدم لمنع الدبابات المعادية من تجاوز ممر متلا.

فيما بعد، سيعرف أن لواءه نجح في تدمير 18 دبابة إسرائيلية سدت الممر، وأخرت عبور العدو، وسيعرف أن اللواء «كمال» أخذ يدور حول الصحن طوال النهار، وفقد ثلاثة أرباع ما بقي من اللواء لتأخير العدو حتى آخر ضوء.

سيعرف كل هذا لاحقًا .. لكنه في احتدام الاشتباك حاول أن يفهم ما حدث له!! حاول أن يقدر حجم إصابته! حاول أن يقنع نفسه أنه فقد البصر مؤقتًا بسبب النظر للهب ساطع، لكن النار التي كانت تشتعل بجراح عينيه كانت تكذب محاولاته، وتواجه قلبه بالحقيقة الفاجعة .. لقد التهمت نيران الصهاينة عينيه.

هل بكى؟ لا .. لم يبكِ في تلك اللحظة، ليس لأن الموقف لم يكن دافعًا للبكاء بطبيعة الحال، ولا لأن إصابة عينيه تمنعه من البكاء، فالبكاء يحدث في القلوب وتعبر عنه العيون، لم يبكِ، لأن المعارك تجفف الدموع في القلوب. للمعارك وقلب النيران قوانينه الخاصة جدًّا ، والتي تختلف عن كل ما نعرفه من مشاعر! فمشاعر المعركة تقتصر على غريزتي البقاء والإفناء، غريزة بقاء الذات وغريزة تحطيم العدو، ولأن إصابته في تلك اللحظة عطلت غريزة تحطيم العدو، فقد تركزت كل طاقته في غريزة البقاء!

عندما هدأ الاشتباك قليلًا ، بدأ «عبد الفتاح» بالدوران حول الصحن زحفًا ، ملتصقًا بالأحجار. كان الألم مبرحًا ،

لكن غريزة البقاء كانت أكبر، واستمر في الزحف لزمن لم يستطع تقديره حتى ارتطم بجسم رخو. تحسس أمامه فلامست كفوفه جسدًا بشريًا ممدًا أمامه، كان صوت الأنين المكتوم والهمهمة يؤكدان أنه حي، وأنه مصري. سأله «عبدالفتاح»:

- إنت مين؟

لم يجب الجندي المصاب الذي فقد ذراعه اليسرى، كان يحول نظره بين الرتبة على كتف «عبد الفتاح» وبين ملامح وجهه التي غطتها الدماء، وعينيه اللتين حلت محلهما كتلة من الدم والأنسجة الممزقة والتراب!! فهم الجندي أخيرًا أنه أمام قائد سريته وليس سواه! تكدرت ملامحه لما أصاب الضابط الشاب، وهو يعرفه بنفسه، ويقول:

- سيادة النقيب «عبد الفتاح»؟ ألف سلامة عليك يا افندم.

في اللحظة التالية، كان الجندي يتحامل على نفسه ويقف رغم جرحه البالغ وذراعه المبتور، وقف الجندي الريفي ليضرب مثلًا في الرجولة والفداء، وهو يحمل ضابطه المصاب بذراعه الباقية متجهًا به نحو الخطوط الخلفية بعيدًا عن الاشتباك. كانت غريزة البقاء تضخ الأدرينالين في عروق «عبد الفتاح» عندما كان وحيدًا مع الصخور، لكنه ما أن وجد بشرًا يأنس إليه حتى بدأ وعيه في الغياب المتكرر.

ومع ذلك، فقد بقيت في ذهنه ذكريات مشوشة عن سيارة تقف في الخطوط الخلفية انتظارًا لتعليمات قائد اللواء، وترفض التحرك لنقله للمستشفى .. عن شاويش من سريته أقبل عليه وعلى الجندي الجريح وهما يحاوران السائق المجند، وعندما فهم الشاويش الموقف، ورفض السائق للتحرك، كانت إجابته عملية وناجزة حين حرك أجزاء الكلاشينكوف فورًا وهو يهدد قائد المركبة بإفراغ خزينة بندقيته فيه لو لم يتحرك فورًا لإخلاء الضابط والجندي المصابين من الموقع، ونقلهما للمستشفى، وعندما لامس جسده كرسي السيارة العسكرية الصلب فقد الوعي لبرهة لا يعرف كم طالت.

في سنوات عمره المقبلة سوف يتذكر النقيب «عبد الفتاح» تلك اللحظات كثيرًا، لن يغادر مخيلته مشهد عقارب الساعة التي تشير إلى السابعة والنصف، كأن الزمن قد توقف به عند تلك اللحظة، وسوف يتذكر لحظة إطباق الظلام عليه لأول مرة كثيرًا .. كثيرًا.

سيتذكرها يوم زفافه لزوجته التي كانت عينه التي عوضه الله بها، ودَّ يومها لو رآها ليقول لها كم هي جميلة في ثوب زفافها، ليغازلها بغزل رقيق عن جمال عينيها، وعن أناقة شعرها. ليحملها بين ذراعيه وهما يدخلان لعش الزوجية للمرة الأولى!

سيتذكرها عندما يرزق بابنته «شيماء»، ويضمها لصدره لأول مرة، كان يخاف على رقة الوليدة الغضة وهو يحاول التعرف على ملامحها بأنامله، تلك الأنامل التي

اكتسبت بفقد البصر حساسية مفرطة، وتمنى فقط لو رأى وجهها للحظة واحدة .. لحظة واحدة، ليعرف شكلها على وجه اليقين. نعم، لقد كون صورة في ذهنه لها، ولكن مشكلة الظلام أنه يجعل المشاهد التي نحفظها في ذاكرتنا عن الأشخاص والأشياء مشاهدًا ظنية، لا يمكننا التأكد أبدًا من مطابقتها للواقع، وكم هو قاسٍ ذلك الشعور، عندما يكون الشخص الذي تعرف صورته ظنيًا هو خيط دمك ذاته.

سيتذكرها عندما يولد ابنه «خالد»، سيتمنى لو رآه وهو يكبر أمامه، لو استطاع أن يكتشف ما ورثه عنه من ملامح كما يتمنى كل أب، أن يرى فيه مراحل طفولته وأطوار مراهقته وشبابه، سيتذكرها عندما يكتشف أن «خالد» صار شابًا يقاربه في الطول، ويتمنى لو رآى هيئة ذلك الفتى للحظة واحدة .. لحظة واحدة.

سيتذكرها كثيرًا لأكثر من أربعين عامًا طويلة .. وقاسية .. ومثمرة!

(6)

في حضن مصر

الزمان: مساء يوم 8 يونيو 1967م

المكان: مستشفى السويس العام

بين اليقظة والغيبوبة شعر بها! قطرة ماء بللت خده! لماذا يشعر بها مختلفة؟ لماذا يشعر بها حانية؟ لماذا يحسها رؤومًا؟

قطرة ثانية .. وثالثة .. لماذا يشعر بالأمان الآن أكثر، وتلك القطرات الدافئة تتساقط على وجهه الملوث بالتراب والدم؟ اقشعر جسده بقشعريرة محببة عندما مرت يد حانية على وجهه، يد طيبة تمسح عنه العرق والتراب والدماء. لحظة بعد لحظة بدأ يفهم وضعيته تحديدًا، فجسده ممد على التراب، بينما رأسه قد استقر في حجر صاحبة تلك اليد الحانية، نعم، لا بد أن تكون امرأة، عرف هذا حتى قبل سماع صوتها. هذا الحنان الأمومي الذي يحتويه الآن، يعطف على جسده المصاب، ويهدهد قلبه المكلوم لا يخرج إلا من امرأة. وقطرات الرحمة التي تتساقط على وجهه الآن كأنها أمطار الجنة لا يمكن أن تفيض بها غير مشاعر أمومة صادقة.

تأكد من هذا حين سمع لهجتها الريفية الحزينة الحنون وهي تقول:

- يا عين أمك يا ضنايا .. منهم لله اللي عملوا فيك كده يا ابني!

ياله من صوت! كأنه صوت أمه يأتيه من ذكريات طفولته في القرية، كانت تضعه في حجرها حين يأتي المساء، وتهدهده، بعد أن تغسل وجهه وقدميه وكفيه، تمامًا كما كانت تلك المرأة تمسح العناء عن وجهه بدموعها وكفها قبل منديلها! وعندما أحست به يتألم حين مست جروح وجهه بمنديلها المبلل، عادت تمسح بيدها من جديد، وضمدت جرح يده التي فقدت بعض أصابعها بالمنديل.

فيما بعد، سيعرف أنه كان في فناء مستشفى السويس العام، في انتظار فراغ الأطباء من جرحى آخرين ليستقبلوه. وسيعرف أن تلك الريفية الطيبة ـ التي لم ولن يعرفها أبدًا ـ كانت ترعاه حتى يتم ترتيب استقباله الطبي. ستبقى ذكرى هذه السيدة الحنون في ذاكرته أبد الدهر. وسيذكرها هي الأخرى كثيرًا .. كثيرًا. فكما نتذكر لحظة بداية الأزمة، نتذكر لحظة بداية الانفراج. وبقدر قسوة محنته كانت حاجته للحنان قبل الطب، وكانت تلك السيدة المجهولة حنونًا ككل أمهاتنا الريفيات الطيبات، فبذلت حنان قلبها صافيًا لفتى مقاتل لم تعرفه ولم يعرفها. فكانت قطرة ماء تتفجر في ظمأ الصحراء، فكيف له أن ينساها؟

سيذكرها كثيرًا .. كثيرًا!

سيذكرها حين يواجه قصورًا بالغًا في الرعاية المقدمة لفاقدي البصر في مصر، سيذكر نفسه ويقول: ولكن مصر تستحق؛ لأن منها تلك السيدة! أو لأنها هي ذاتها تلك السيدة التي جسدت كل معانيها!

سيذكرها حين يواجه التعنت الحكومي، فيضطر لمراسلة رئيس الجمهورية شخصيًا، ليطلب منحة علمية تؤهله لمعركة الحياة، بعد أن فرضت عليه إصابته الخروج من معركة الحرب!

سيذكرها كلما واجه القبح بالجمال، وسيذكر مساعدتها له وهي لا تعرفه كلما ساعد زملاءه وتلاميذه في الكلية، وهي السمة التي اشتهر بها، حتى قال عنه أحد الزملاء:

«لو أن شيطانًا جاء لعبد الفتاح تركي لساعده»

سيذكرها كلما أساء أحد لمصر، أو اتهمها بأنها لا ترعى أبطالها فيجيبه قائلًا: ولكن مصر منها تلك السيدة الحنون، تلك التي استطاعت أن تكون أمًا للحظات، عندما وجدت من يحتاج بشدة لأمومتها الصادقة.

سيذكرها وهو يأبى إلا أن يضيف لبطولاته في الحياة بطولة جديدة، تضاف إلى بطولته كأستاذ جامعي وباحث أكاديمي في علم النفس التربوي، حين يذهب للصحراء ويبدأ مشروعًا لاستصلاح أرضها الصفراء، تلك الرمال التي صارت عزيزة عليه منذ اليوم الذي نزف فيه دماء عينيه فوقها، وأودعها رفاق سلاحه!

سيذكرها كثيرًا .. كثيرًا! وبمرور السنين ستصبح تلك المرأة الرمز معادلة في ذهنه لمصر، ليقول دائمًا:

مصر استحقت وتستحق .. مصر استحقت وتستحق

** تمت **

في المستشفى العسكري (لليسار) مع رفاق السلاح

بعد الإصابة

الملحقات

خطاب النقيب احتياط «عبد الفتاح تركي» بعد إصابته للزعيم «جمال عبد الناصر»

سيادة الرئيس/ جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة

تحية طيبة، وبعد:

قسمًا، لن تموت كلمتي إلا شهيدةً على شفتي، كما استشهد النور في عينيَّ.

ليس دافعي لكتابة خطابي هو ما أمر به من أمور لا تصدق، توشك أن تذهب بي لفقدان كل شيئ! وإنما دافعي هو أن تبقى المعاني الشريفة حقيقة، لا تهتز في أعين الناس، نتيجة خطأ قد لا يكون مقصودًا. بل والأخطر من ذلك، هو ما وصلتْ إليه معنويات الناس من حولي، بعد أن تحولتُ من عنصر بطولة يُحتذى، إلى عنصرٍ ينشر الخوف في نفوس من حوله، حين يرون بأعينهم نتيجة التضحية أتحملها وحدي دون أن تُقَدَّم لي أي مساعدة. وحدي أسير في الظلام منذ وهبتُ نور عيني من أجل مصر. أدفع ثمن من يأخذ بيدي لأعبر الطرقات!

كيف نطلب من الناس أن يضحوا دون أن تكون ظهورهم مؤمَّنَة؟ إن كل ما يقال من أن الوطن لا يدخر وسعًا في تقديم الرعاية لكل من يؤدي واجبه، يذهب أدراج الرياح، إذا ما لمس الناس بأيديهم، ولو حالة وحيدة تناقض ذلك.

أصبح تبرير ما وصل إليه حالي مهما كانت الأسباب أمرًا غير مقبول. خاصة أننا نعيش ظرفًا من أقسى الظروف، يقتضي تعبئة الجماهير لتسعى نحو النصر. إن الكلام لا يُقنع بقدر ما تقنع الماديات التي يلمسها الناس. كيف يضحي زميل سلاح لي بلا خوف وهو يعرف نتيجة قيامي بالواجب، وسقوطي في ميدان المعركة من أجل مصر؟ وكيف يقتنع ذلك الزميل - وغيره مئات - بأن الوطن مشغولٌ بما هو أكبر وأعظم من أن يأخذ بأيدي رجاله الذين سقطوا من أجله؟

أصبحت حياتي مستحيلة الاستمرار، ولا بد من أن أضع نهاية، قد تبدأ بعدها حياة أخرى .. أو لا تبدأ! إن كل مقدرتي على المقاومة قد أوشكت أن تنهار بعد أن وقفت وحيدًا أناضل من أجل أن أعيش، ولكني بشر، وطاقة البشر محدودة. ولسوف يكون لقراركم الذي سوف تتخذونه تجاه قضيتي، كل الأثر في أن تأخذ حياتي نقطة بدء جديدة أو لا تأخذ. وسوف أضع أمامكم الحقيقة فقط، دون انفعال. والحقيقة وحدها لا تحتاج إلى تنميق كي تصل إلى قلوبكم. ولهذا أضمها بإيجاز شديد:

أولًا: كان لي شرف خوض معركة الدفاع عن أرض مصر في يونيو 1967م كضابط استطلاع بالفرقة الرابعة المدرعة، التي علّمت الأعداء أقسى دروس المعركة، وحارَبَت في أقسى ظروف لم يتعرض لها جيش من قبل.

ثانيًا: في اللحظة التي انتهيت فيها من أداء المهمة التي كنت مُكلّفا بها، كأكمل ما يكون الأداء بشهادة قائد اللواء الذي كنت أخدم به، والتي ضمها تقريره المرفوع للقائد العام، وطلب كمكافأة لي على ما قمت به من عمل فدائي: التثبيت على قوة

الجيش العامل، الترقية لرتبة نقيب، ومنحي أحد الأنواط التشجيعية. وقد أبلغني بذلك وأنا بمستشفى المعادي العسكري، والتي كنت بها نتيجة إصابتي إصابة مباشرة أفقدتني الرؤية للأبد، وفشلت كل محاولات العلاج هنا. وأكتفي بما ذكرت عن المعركة، وأحتفظ بكل التفاصيل لأذكرها أمام المسئولين إذا تطلب الأمر.

ثالثًا: أمر السيد وزير الحربية بأن يبدأ تأهيلي بمركز رعاية المكفوفين بالزيتون، وبدأت فعلًا اعتبارًا من شهر مايو 1968م الدراسة بأحد أفرع هذا المركز، وهو «برج النور»، وبه دراسة منعقدة حاليًا بغرض إعداد بعض العاملين في ميدان رعاية المكفوفين. وبعد انتظامي في هذه الدراسه لمدة شهر، اتضح لي أنها لا تمت بصله إلى التأهيل العلمي الذي يحتاجه إنسان فقد بصره في الثلاثين من عمره، ويكفي دليلًا على ذلك، أن نسبة الأشخاص المبصرين الذين يحضرون هذه الدراسة يصل إلى أكثر من 60 % من مجموع الدارسين. ولقد كتبت بذلك إلى السيد وزير الحربية، محللًا هذه الدراسة، وطلبت في مذكرتي - التي سلمتها باليد لمكتب الوزير - أن يحتفظ بحقي في أن أُوفَد بغرض التأهيل في أحد المراكز المتخصصه في تأهيل مكفوفي الحرب، ولم يستجب لطلبي حتى الآن، وبدلًا من أن تحقق لي هذه الدراسة ما قُصِدَ من غرض في إلحاقي بها، كانت سببًا مباشرًا في تدهور حالتي النفسية، وولدت لدي مشاعر القلق والتوتر، والإحساس بالضياع. وقد تحدثت بذلك للسيد الدكتور «محمد عبد المنعم نور» مدير المركز، ورجوته أن يعمل على كتابة تقرير بحالتي، ورفعه للسيد القائد العام، وخاصة بعد اقتناعه، ووعده بأن يطلب لي في تقريره السفر بغرض التأهيل.

رابعًا: منذ إصابتي حتى الآن، لم تتقدم أي هيئة مسئولة أم غير ذلك بأي مساعدة لي، بل والأكثر من ذلك، أنه تتعقد أمامي كل الأمور ولم يتحمل عبء مشكلاتي سوى أفراد أسرتي، في بطولة وشرف! ولكن لكل طاقة حدود، فلقد أصيبت أمي بمرض عصبي يوشك أن يذهب بها إلى الجنون، وتحطمت نفسيات إخوتي، فأصبحوا من حولي كالتائهين، كل شئ في أعينهم بدأ يهتز، حتى القيم التي سقطتُ أنا من أجلها. أصبح انتظارنا للغد - والحال هكذا - يعني أننا نموت جميعًا ببطء.

وتلافيًا لعدم تفاقم هذه المشكلة، وحتى لا تصل بالترك إلى نهاية مفجعة، ورحمة بمن يذرف دمعة من أجلي، وقدوة لكل من تريدونه أن يؤدي واجبه بلا خوف، وباسم حقي على مصر، أطلب:

أولًا: إيفادي فورًا لأحد مراكز التأهيل العالمية المتخصصه في مكفوفي الحرب، لتدارك ما وصلت إليه حالتي النفسية والعصبية.

ثانيًا: تخصيص إحدى البعثات العلمية في الدولة بغرض مواصلة دراستي العليا بها، للحصول على درجتَي الماجستير والدكتوراه، في مجال تخصصي وهو الفلسفة وعلم النفس التربوي. وأضيف إليكم ما يجعل مطلبي أقل بكثير مما يجب أن يعوضني به الوطن: إن السفر للخارج من أجل الدراسة حق يُعطى لأي ابن من أبناء هذا الوطن قد يتفوق في دراسته، وأظن من الظلم ألا أتساوى معه! هذا الحق سبق أن منحته الدولة - في ظل ثورتها - لأحد أبنائها الضباط، أصيب بنفس إصابتي في الحرب العالمية الثانية، وهو الملازم «صلاح مخيمر»، وقد أُوفِد في بعثة إلى فرنسا لمدة سبع سنوات، عاد بعدها حاملًا درجة الدكتوراه في علم النفس، وهو أستاذ علم النفس بكلية المعلمين بالقاهرة. ومما يجعل حقي هذا

ضرورة لا سبيل لي إلاها، أنني حاصل على درجة ليسانس الآداب قسم فلسفة وعلم نفس، من جامعة القاهرة عام 1961م، وأن وجودي للدراسة في الخارج سوف يمكنني من إتقان لغة المراجع، والتي سوف أدرسها، الأمر الذي سيوفر علي الكثير من الجهد والوقت، وهو بالإضافة إلى ذلك سييسر لي الحصول على هذه المراجع بالخط البارز «برايل»، الأمر غير المتوفر بالجامعات المصرية. إنه بعد معايشتي العمى طوال هذه المدة، اتضح لي أنني بحاجة إلى مرافق خاص، ليصحبني أينما توليت، وليقرأ لي، وهذا المرافق سوف أدفع أجره من جيبي الخاص. وسوف أضطر في كثير من الأحيان إلى استعمال وسائل المواصلات الخاصة، مما سيشكل عبئًا على دخلي المتواضع. ولن يساعدني في مواجهة كل ذلك إلا دخل معقول يتحقق لي بعد مواصلة دراساتي العليا. ولما كنت لا أَقبل أن آخذ دون أن أُعطي، فإنني أرفض أن يُعطى لي مرتبي دون أن أعمل. فإن مال الدنيا بأسره لا يعطيني أية سعادة، بقدر ما يوفرها لي العمل الجاد المثمر، ولن يتحقق هذا إلا باستكمال دراساتي العليا. إن تحقيق هذا المطلب سوف يمسح ما تراكم في نفوسنا جميعًا من اليأس، ولسوف يكون له ردة فعل لدى الكثير من الزملاء الذين يترقبون ما سيؤول إليه حال زميل سقط بينهم في المعركة. وإنه لمما ييسر الاستجابة لمطلبي، أنني الوحيد بين الضباط الذي أصيب بالكف التام للإبصار، والضابط الوحيد الذي يشاركني حالتي هو الرائد مهندس «أحمد شوقي»، الموجود حاليًا بلندن بغرض العلاج.

السيد الرئيس، إنني بعد أن وضعت كل تلك الحقائق أمام ضميركم، أطالبك باسم مسئوليتك، وباسم الحق والعدل، أن تقول في هذه القضية كلمة حق. واعلم يا سيدي أن كلمتك

ستشكل حكمًا بالحياة أو الموت. إنني خططت لحياتي على أساس الاستجابة، ولهذا اتخذت قراري على ضوئه وهو:

أولًا: سوف امتنع اعتبارًا من تقديم هذه المذكرة عن مواصلة الدراسة بمركز المكفوفين؛ حيث لا فائدة تُرجى منه إلا تدهور حالتي النفسية، والبدنية، وإنني الوحيد القادر على الحكم على جدواها.

ثانيًا: أترك لضميركم فترة كافية تبدأ من لحظة وصول خطابي هذا بين يديك، وحتى أول شهر نوفمبر 1968م، وأظن أن شهرين كافيان لبحث وتقرير مصير هذا المطلب. ولكن إذا ما ضاع صوتي في الزحام، فلم يصل إلى قلبك، وإذا لم تُقرِّر تلبيته، أو لم يتم اتخاذ أي إجراء حاسم في هذا الصدد خلال هذه المدة، مما سأعتبره بمثابة الرفض لمطلبي - وهو ما أعيش من أجله بعد أن تبدد الأمل في عودة النور إلى عيني - فسوف أبدأ إضرابي عن الطعام بمجرد انقضاء هذه المدة، وحتى ألقى الله.

سيادة الرئيس، إن مواجهة الموت أهون بكثير من احتمال العمى لشخص في مثل سني، وإن حياتي الآن بمثابة الموت البطيء إذا ما بقي الحال على ما هو عليه الآن، ولم يتحقق أملي الذي أنشده في هذه الحياة. ولن أقبل هذا الموت البطيء، ولذا سوف أضع حدًا لهذه المأساة لتنتهي، وتنتهي معها للأبد حياتي. وأحمل ضميرك - وضميرك فقط - كل ما يترتب من عدم الاكتراث، وعدم الأخذ بيدي حتى أعبر هذه الهوة السحيقة من الظلام الذي أدرج فيه وحيدًا.

وفقكم الله

المواطن: عبد الفتاح تركي

أغسطس 1968 م

«بتحدى الصبر»

بقلم: عبد الفتاح تركي في أغسطس 1967م

تلك القصيدة كتبها البطل «عبد الفتاح تركي» في أغسطس 1967م، بعد شهرين فقط من إصابته، عندما بدأ تعلم القراءة بطريقة برايل، يعبر فيها عن آلامه، ونظرًا لكتابتها بعد تلك الفترة المحدودة جدًا من إصابته، نلاحظ فيها تزاحما للمشاعر، مع عدم الاهتمام كثيرًا بالصنعة الشعرية واتساق الموضوعات. وهذا أمر مفهوم في الظرف الذي كتبت فيه. ومع ذلك نراه في ختامها يغني لمصر، ويعتذر لها بأن إصابته منعته رغمًا عنه من الاستمرار في الصف مع أولادها! لم تصبه نقمة على وطنه رغم ظروف الإصابة والهزيمة، ولم يرَ تضحيته كبيرة على هذا الوطن، رغم ما عاناه بعد الإصابة من بعض البيروقراطيين، وقبل أن يقرر الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» سفره للدراسة بفرنسا. إلا أن الدكتور «عبد الفتاح تركي» كان من معدن لا يكفر بوطنه ولا بمبادئه مهما قست الظروف.

بلمسةْ ..

فتحت الصفحة الخامسةْ

كان العنوان مكتوب: تمرين

والنبض في قلبي حزين ..

همدان!

لكن من كُتر الشوق ..

بينط لفوق

سهران ..

لا عمره يحب ينام

ولا يعرف استسلام

وتطوف بوداني الهمسةْ

من بعد اللمسةْ

وتقول: الصبر .. الصبر

وأنا كنت خلاص صليت العصر

ومعايا الشاي .. وكتاب

بيقولوا كتاب ..

أو فتح أبواب

للكلمة النايمةْ المأسورةْ

علشان ماتمر

تصحى وتدور

وتنور بالنغم الحر

وتلملم تفاصيل الصورةْ

وفي عصبي تمر

ويدور الكف ..

يضم الحرف

يدوخ م اللف

يعرق .. يعزق ..

من غير فاس

ويمر الدم في عرقه رصاص

ويشد وراه ..

العين التايهةْ زي زمان

ويعود تعبان

☆☆☆

ويفوت المغرب بعد العصر
ونفس الصفحةْ هي الصفحةْ
ونفس السطر هو السطر
وتطوف بوداني الهمسةْ
وتقول لي: الصبر .. الصبر
وتجيني النغمة التايهةْ ..
تشق الليل
بتغني يا ليل
والليل ألوان
فيه ناس سهرانةْ تقول مواويل
وناس بالدم تقيد قناديل
وناس بدموعها تحمي الليل
وعيال م اللعب تنام في تعب
وعيال م الغلب تلم عقب
ما هو أصل زمانه ..
وزماني .. عجب
بيجيب شعبان من قبل رجب
وأصله نحاس ..
ويقول ده دهب
وتسيبني وحيد .. ساكت مانطقش
ويدور الكف ..
يضم الحرف
يدوخ م اللف

يعرق .. يعزق ..

من غير فاس

علشان تتوهج في عروقه ..

لحظة إحساس

إحساس بالعين السهرانةْ ..

على خط النار

إحساس بالإيد الشقيانةْ ..

بتعلّي جدار

إحساس بنهار يتعدى

عيوني المأسورةْ ..

تزداد إصرار

إحساس بالإيد المبريةْ ..

على قبضة فاس

بتشيل الأرض وتتكتها ..

علشان الناس

وأهو زي الصفحةْ المطويةْ ..

والليل لو مر

تلحقني الهمسةْ المنسيةْ ..

وتقول لي: الصبر .. الصبر

☆☆☆

هجرتني الصحبةْ السميعةْ ..

من آخر يوم

ونسيت لياليَّ وصحبتهم ..

ونسيت النوم

معذور يا اصحاب

علشان شِعرِي ..

دايمًا تصاوير

للحس النابض جوايا

يطرح مواويل

مجروحة حبيبتي بغنيلها

واللي كيانها هو كياني ..

هو الموال

موالها قاسيته وغنيته

وعشان يستنى يغنيلها ..

ويقيد ليلها

بيموتوا رجال

مجروحة حبيبتي بغنيلها

لو كنت يا ليل أنا حبيتك ..

حب الإنسان

وبنيت لك قصري بحروفي ..

ورويت بستان

كنتِ انتِ الصورةْ الورديةْ

للكلمةْ الخالدةْ الأزليةْ

للحب الأول في صبايا

عاش جوايا

ونحت تمثال

وكانت دي الصورةْ المقريةْ

لست الحسن المنسيةْ

صايمةْ ومنصانةْ عن الميه

مستنيةْ سنين لو غاب

مستنيةْ الأسمر ..

يرجع من تاني

يفرح بيها .. ويمنيها ..

وتنسى الحرمان

آنا شفته في شجرة صفصاف

بتخلي ع الأرض ورقها ..

والوقت جفاف

وتحوش عن الأرض عطشها ..

شفت الإخلاص؟

☆☆☆

من إيه أنا اخاف؟

من عينك النايمةْ المسبولةْ؟

ويا القمر نسهر مانانم

نسمع فصول الحدوتةْ

عن ملكة عايشةْ ومقتولةْ

أو شاطر يقتل كام غولةْ

وليالي حكاوي الجنيةْ

فاردةْ شعورها ع الميه

كان أحلى خوف أنا حسيته

كان واحنا صغار

☆☆☆

صحيح يا «ليلى» أنا حبيتك

ومنحتيني لحظة إخلاص

بس حبيبتي اللي اقصدها ..

هيا الأنفاس

كنتِ انتِ الصورة الوردية ..

لجمال الأصل

وإن كنت صحيح أنا غنيت لك ..

كان قصدي لمصر!

☆☆☆

يا حبيبتي يا مصر .. مجروحةْ

وانا بس .. بغني

غصبن عني

إمبارح كنت مع ولادك

في الصف هناك

ورويت الأرض العطشانةْ ..

جذوة دمي

واللّه .. جرحي بيمنعني

غصبن عني

أنا هغمس ريشتي في أغواري

واكتب لك بس ..

وأغني

وإن فرغ الصبر .. هتحدى الصبر

وإن فرغ الصبر .. هتحدى الصبر

«الكلمة»

بقلم: عبد الفتاح تركي في نوفمبر 1967م

في هذه القصيدة، وبعد مرور ستة أشهر من إصابته، ومن معايشة الواقع المؤلم مع فقد البصر، نجد اللغة الشعرية وقد صارت أكثر اتساقًا بمرور مرحلة الصدمة، ونجد وحدة الموضوع، فضلًا عن نزعة التأمل والفلسفة الظاهرة في القصيدة، فهو يتناول من جديد القراءة بطريقة برايل، ولكن من خلال مفهوم الكلمة وقيمتها.

الكلمةُ .. آلةُ فنان
الكلمةُ روحُ الإنسان
زنزانتي آسرٌ بلا قضبان
زنزانتي خوفٌ بلا سجان

☆☆☆

الكلمةُ .. آلة فنان
تحيا .. ويموت الإنسان
الكلمة منذ صباي هوايْ
لو جاءت نغمًا عبر الناي
أفهمها .. أعيها
والليلة تقرأها يداي
من غير وميض النور
من فوق الحرف تدور
وكأن الحرف رفات!

وكأن بكفي سر مسيح
يَبعَثُ فتحيا الكلمات
وَهَجًا يبتلع الظلمات

☆☆☆

سأبعث في ليلي شمسي
وسأشرب دمعي من أمسي
وسأفرك في صبحي أذني
لأقود خطاي على دربي
فهدير الصورة في سمعي
شبح يهتز بلا ألوان
لكني سأنهض وأصلي
وسأعبر درب الأحزان
وسأُشعل من جسدي شمسًا
لتقود الخطوة شمسان
بضمير الكلمة أنا أحيا
باقٍ .. أتحدى النسيان
فَبِسِرِّ الكلمة كنتُ أنا
وبرجع صداها ..
كنتُ الإنسان

«وجهان»

عبد الفتاح تركي في شتاء 1987م

أما هذه القصيدة فكتبت بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على الإصابة، كان خلالها قد صار الدكتور «عبد الفتاح تركي» الحاصل على الدكتوراه من السوربون، وأستاذ علم الاجتماع التربوي بكلية الآداب جامعة طنطا. يخاطب مصر في قصيدته، أثناء اغترابه للتدريس في المملكة العربية السعودية، والتي امتدت بين عامي 1984 - 1990م. وقد أضفنا بعض معاني القصيدة التي توضح توجهاته الفكرية في الهوامش، وتلك المعاني وفقًا لشرح الفقيد لولده الأستاذ «خالد تركي» والذي حصلتُ منه على القصائد.

حين كان الكون أنتِ

فيض نيلٍ بفلاةِ

قمتِ وسط التيه برًّا

زاخرًا بالمغرياتِ

فيه تفنى الأرض حدًّا

للوجودِ وللحياةِ

هكذا في البعد نشقى[10]

منك نحظى بالسماتِ

☆☆☆

(10) اغترابه للعمل في المملكة العربية السعودية.

يحتوينا سحر أمسٍ
عبر صمت الراوياتِ
عز نومٌ، لذ خوفٌ
رق همس من لداتي
حين كان الليل يُطوى
عند فجر بصلاتي
سعي بأس .. ضرب فأس
وصل صبر بأناةِ
فأس «مينا» أنهضتنا
قبل عصر الحاسباتِ
حين كان القطن غضًّا
في حقول مزهراتِ
استبقنا الصبح زمرًا
كل شبلٍ وفتاةِ
فافتلينا الزرع نبذا
لعليلٍ ومواتِ
وظهير من طيور
رد زحفًا عن نباتِ (11)

☆☆☆

حين كان الخطو بذلًا
يقتفي نهج الهداةِ

(11) يشير البيت لطائر الحقل أبي قردان وهو يأكل الحشرات التي تخرج من الأرض مع ضربات الفأس.

حزنًا للتاريخ أمرًا

وعصفنا بالغزاةِ [12]

وطرحنا الخوف عنا

نمحو عهدًا لبغاةِ [13]

ساد عدلٌ .. عم خيرٌ[14]

طاب عيشٌ للأُباة[15]

☆☆☆

حين كنتِ شط نورٍ

وسط بحر ظلماتِ

سيل حين كيف يحصى

في خضم الذكريات

كيف يوفي بعضُ كلم

حقَّ مجد المعجزاتِ

خفق قلبٍ .. قصد خطوٍ

في قرارٍ و شتاتِ

ثم أنتِ اليوم صرتِ

وكر لهو لجناة[16]!

واشتهى منك وليٌّ

ما اشتهى ذئب لشاةِ

---

(12) جلاء الإنجليز والعدوان الثلاثي..

(13) الحقبة الملكية.

(14) العدل الاجتماعي بعد ثورة يوليو.

(15) الكرامة الوطنية والاستقلال الوطني.

(16) التغير في توجه الدولة في مصر.

شغله من بعد نهش ..
حوز طوق للنجاةِ [17]
ماتت الفرسان همًّا
في بطون الأمهات
تأبى خبزًا صيغ ذلًّا
من قروض وهباتِ
تبكي روضًا صار غورًا
مستباح الحرماتِ
فيه هتك العرض مجدٌ
والهوى قاضي القضاةِ
غاب منا الوعي لما
ساد مكر لعداةِ
فانصرفنا عن جهاد
وقنعنا بالفتاتِ
وتركنا البر بورًا
ولبسنا القبعاتِ
تلهث الدنيا .. ونحبو
تحت سفح الأهرامات
سير الطاغوت شعبًا
نحو ذل بعصاةِ
فرأينا الناس تحشر

(17) فساد السلطة الحاكمة

في بطون الحافلات

ورأينا القبر يطوي

ضيفه قبل الممات [18]

ورأينا العرش يعلو

فوق شعب من حفاةِ

مال شعب رغم هول ..

شاد أم الحاضراتِ؟

يحتويه اليوم خوفٌ

فيهرول من حصاةِ؟

مال شعب رب نهر

فيض جنات فراتِ

يستطيب اليوم ماء

مجلوبًا بالطائراتِ؟

ردنا جهل لفقر

زاغ بصر من بناةِ

فبسطنا الكف نرجو

فضل أقوام عراةِ

وأبينا بين أهل ..

حفر بئر أو قناةِ

يسرقون اليوم منّا وَغَدًا

ماضٍ وآتٍ؟!

(18) مع بداية ظاهرة ساكني المقابر.

إن تغب يا مصر شمسك

تتمحي مرآة ذاتي

خلي عنك الغيم .. هبي

فشموسك مقبلاتِ

من ثرى من تبر أرضك

صيغ نهر المكرماتِ

جمعي الفتيان ضمي ..

خير جند وحماةِ

مُكرَهًا ودعت صفي

ليت تُجدي أغنياتي

مُكرَهًا ودعت صفي

ليت تجدي أغنياتي

مقتطفات من كتابه «فلسفة التربية»

يتبنى الدكتور «عبد الفتاح تركي» في كتابه النظرية القائلة بأن العقل البشري منتج ثقافي تربوي، وليس منتجًا بيولوجيًا، وفي معرض هذا جاء في كتابه «فلسفة التربية»، صـ 140 / 141:

التاريخ يعلمنا أن العقل البشري تكون ونما وما زال ينمو بفضل العلاقة الجدلية التي تنتظم سعي الإنسان للسيطرة على الطبيعة. وهكذا يكون العقل تعبيرًا عن درجة النطج الذي تحقق بفضل هذه العلاقة: نضج الإدراك والفهم، وتَمَثُّل الخبرات، ثم إعادة اختبارها، ثم إبداع جديد.

وهذه الحقيقة التي أكدها التاريخ، تعرف اليوم أيضًا من خلال علوم الإنسان، مصيرًا مماثلًا. فباستثناء محاولات التزييف الأيديولوجي المستترة في أردية العلم، لا نعرف بحثًا علميًا واحدًا أقام الدليل على وجود قدرات عقلية موروثة لدى الإنسان. وعلى النقيض من ذلك تؤكد نتائج بحوث الإنسان، ما خلصنا إليه من استقراء تاريخ تطور العقل البشري وإبداعه الثقافي. وما نسميه: قدرات عقلية، ليس أكثر من مجموعة الوظائف التي تتكون في العقل نتيجة التربية. وتختلف هذه الوظائف كمًا وكيفًا باختلاف طبيعة التربية التي تتوافر للإنسان، وتحكم عملية تكوين هذه الوظائف وفاعليتها.

وتتدعم هذه النتيجة أكثر حينما نفهم إيحاءات القرآن الكريم فهمًا صحيحًا. فهم صحيح لا يدير ظهرة للمتاح من المعرفة الإنسانية، وإنما يتسلح بها دون مبالغة أو نسيان لحقيقتها، وهي

أنها نسبية في الزمان والمكان. ولا نجد في القرآن الكريم نصًا واحدًا يدعم الفهم القديم الذي استبعدناه والذي قال بفطرية القدرات العقلية. وعلى النقيض من ذلك نجد ما يدعم ما ذهبنا إليه من أن العقل بنية تكتسب وتتحدد وظائفها بفضل وعي الإنسان التدريجي بما حوله وتمثله مستخدمًا ما حباه به الله من أدوات تيسر له ذلك. هكذا نفهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ فَهُوَ﴾ [سورة النحل: 78]

وفي معرض بيانه لكون المراحل العمرية وارتباطها بتطور العقل البشري هي منتوجًا ثقافيًا بدورها، يقول في «فلسفة التربية» صـ 144 / 145:

«في الأسر الريفية عندنا، وأيضًا في الأسر الفقيرة التي تسكن المدن، وتمارس مختلف الحرف والأعمال اليدوية، تتقلص فترة الطفولة لتنتهي بمجرد أن يتعلم الطفل المشي والكلام والاعتماد على نفسه في المأكل والمشرب والملبس. ليكون من الممكن أن ينخرط في أعمال الكبار ابتداءً من الخامسة أو السادسة من عمره. وفي مقابل هذا نجد الأسر الموسرة وأيضًا تلك التي تمارس أعمالًا غير يدوية، ولا تحتاج بشكل ملح أن يعمل أطفالها، تمتد فيها طفولة الأبناء إلى سن المراهقة، بل وربما بعدها».

«إن ما نطلق عليه اليوم مرحلة المراهقة، لم يكن شيئًا معروفًا في كثير من المجتمعات القديمة، بل وفي بعض المجتمعات الحديثة أيضًا. وفي رأينا أن مرد ذلك إلى أن مراهق اليوم يصل إلى اكتمال نضجه الجسمي، في سن الخامسة عشر أو السادسة

عشر، فيكتسب هيئة الرجل. وفي الوقت نفسه يظل تابعًا خاضعًا للسلطة الأبوية والأسرية مما يخلق بداخله تناقضًا عظيمًا. فمن ناحية هو رجل مكتمل الرجولة، ولكنه في الوقت نفسه فاقد لإرادته، غير قادر أن يفعل ما يريد وأن يكون سيد نفسه».

أما عن وضع المرأة في المجتمع البشري، والفروق بين الجنسين وعلاقتها بتطور المجتمعات، فيقول في صـ 146:

«إن وضع المرأة في أي مجتمع قياسًا إلى وضع الرجل، هو تعبير عن درجة التطور الذي بلغه هذا المجتمع على طريق تصحيح وعي المواطنين بحقيقة مساواة المرأة للرجل فيما يتعلق بكونها إنسانًا وكونه إنسانًا. فإذا ما نظرنا إليهما باعتبارهما كائنين بيولوجيين، وجدنا أنفسنا أمام ذكر وأنثى لكل منهما خصائصه الجسمية ووظائفه الفسيولوجية، التي لا توحد غايتها إلا من خلال توحدهما زوجين يعمران الحياة. وهما عند هذا الحد متساويان، فكل منهما يكمل الآخر ولا يمكنه بمفرده أن يحقق إرادة الخالق في عمارة الأرض واستمرار الحياة.»

أما إذا نظرنا للرجل والمرأة من خلال ما يحقق إنسانيتهما، هالنا اتساع الهوة التي تباعد بينهما، هوة تضيق وتتسع عبر التاريخ، وفي الحاضر أيضًا بين المجتمعات المعاصرة. وبتعبير آخر فإن المجتمع وهو يصنع الرجل أي يكسبه ما يكون به إنسانًا: عقله، نفسه، خلقه، مهاراته، دوره أو أدواره في المجتمع ... إلخ، يجعل له مكانة في التنظيم المجتمعي.

وبنفس القياس حينما يعكف المجتمع على صناعة المرأة، أي يكسبها ما تكون به إنسانًا: عقلها ونفسها وخلقها ومهاراتها ودورها أو أدوارها في المجتمع ... إلخ، فإنه يخصها أيضًا بمكانة

محددة في التنظيم الاجتماعي. وهذه المكانة ليست ثابتة بالطبع بل هي متغيرة عبر الزمان والمكان، فما تحتله المرأة المصرية عندنا اليوم من مكانة يختلف عما كانت تعرفه المرأة المصرية منذ خمسين أو مائة عام.

الفروق إذن بين الرجل والمرأة هي فروق ثقافية تخلقها التربية التي يختص بها كل جنس من الجنسين، ومعنى ذلك أن التربية مسئولة بشكل مباشر عن الفروق في أوضاع المرأة والرجل. وبالطبع تترجم التربية عن إرادة القوى المالكة للقرار السياسي والاقتصادي في المجتمع.

مقتطفات من كتابه

«تربية ما بعد الحداثة: من أين؟ وإلى أين؟»

يبدأ الكتاب بقصيدة للمؤلف بعنوان «الإنسان والقمر»:

في زمن القمر المصنوع
فقد الإنسان الغاية والينبوع
فقد الإنسان طفولته ..
وحبيبته .. وصديقًا
كان قريبًا
جدًا جدًا .. مثل الروح

☆☆☆

في زمن القمر المطبوع
كان الإنسان يسافر
من قريته إلى قريتنا ..
في أسبوع
ويموت لجشع من شبع
ويموت لفقر من جوع
ويمد بقامته جسرًا
ويضمد جرحًا .. بدموع

☆☆☆

في زمن الكون المفتوح
يتردى الإنسان بكهفٍ
ينهكه قلقٌ وقروح

يحتاط بحدس .. من حتفٍ

فيجيء بخوف ويروح

قد بقي لتختم قصته ..

ما بقي لطير مذبوح

ويوضح المؤلف في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه في دراسات ثلاث ضمنها بين دفتي كتابه، وهو المنهج النقدي في تناول العلوم التربوية والذي عُرِف به الدكتور «عبد الفتاح تركي» بين التربويين واقترن باسمه بينهم، وهو يبين قناعته بهذا المنهج فيقول في صـ 3 من كتابه:

«هذا العلم الذي يمكن أن نسميه كريتيكولوجيا (Criticology) يعني أن يتوافر عدد من أهل كل تخصص، على نقد وتقويم ما ينجح فيه زملاؤهم من إنتاج مادي أو فكري أو علمي أو تطبيقي ... إلخ. نقد تقويمي يكون بمثابة المرآة التي يرى فيها أهل كل تخصص أنفسهم، فيقفون على حقيقة ما أبدعوا، ويتعرفون إلى ما يرتبط بإنتاجهم من نفع أو ضرر، ويلمسون ردود الفعل على ما طرحوه على الناس. هذا النقد يكون إذًا نوعًا من التغذية الراجعة التي تضبط وتوجه وتحكم المستقبل الممكن لأهل كل تخصص».

والتربية لا تشذ عن بقية المجالات الأخرى، فهي أحوج ما تكون إلى الكريتيكولوجيا، والسبب في ذلك أن التربية وُسِمَتْ دائمًا - فكرًا وممارسات - بالجمود والثبات وعدم القابلية للتطوير ... إلى غير ذلك من المقولات التوقيفية المغيبة للوعي".

ثم يعلق على مفهوم «مجتمع ما بعد الحداثة»، ويوضح انشغاله بعلم التربية وتوظيفه في تأهيل إنسان مصري يصنع مستقبلًا جديدًا لمصر. ليصبح كما قال وتعهد للزعيم الراحل «جمال عبد الناصر»

في خطابه، مقاتلًا من أجل مصر وفي صفوف جنودها بسلاح العلم، فنراه يقول:

«نحن في هذا الكتاب نستخدم هذا المفهوم ونحن على وعي تام بأنه لا حدود فاصلة ولا قطيعة تامة بين ما أسميناه مجتمع الحداثة، أي المجتمع الصناعي التكنولوجي الرأسمالي، الذي ما زلنا نعيش فيه، وبين هذا المجتمع الجديد الذي نطلق عليه مجتمع ما بعد الحداثة».

مجتمع ما بعد الحداثة إذن هو في نهاية المطاف رؤية نقدية لمجتمع الحداثة، الذي أخضعته وتخضعه الدراسات النقدية للتحليل النقدي، لتضع أمامنا أخطر نقائصه فيما يتعلق بالتربية وهي: انسحاق الإنسان وغربته وضياعه، وتحوله إلى آلة تتحرك وتعمل وتنتج وفق برنامج تربيتها. هذه الخصائص غير الإنسانية تجعلنا في قلق دائم على مصير هذا الإنسان ومن ثم على مصير عالمنا كله. وهكذا يتحدد شاغلنا في علم الكريتيكولوجيا التربوية في تلمس الإجابة على السؤال: وماذا عن الإنسان المصري الذي نصنعه بالتربية؟ هذا السؤال لا يمكن حسم الإجابة عنه إلا من خلال الدراسات النقدية التي يجريها المتخصصون النقديون في التربية، أينما تمت في أي بقعة من عالمنا أو من قريتنا الصغيرة، فالخصائص التي ألمحنا إليها تعرفها كل المجتمعات، مهما تباينت عقائدها السياسية وتوجهاتها الاقتصادية، وخصائصها الاجتماعية.

الفهرس

إهداء.......... 5

هذه السلسله.......... 7

1. تحت القبه الخضراء.......... 11

2. تحت القتام.......... 15

3. لو جاء الغد.......... 25

4. الشهيد الحي.......... 31

5. معركة الصحن.......... 39

6. في حضن مصر.......... 45

ملحقات.......... 51